دفاعا عن المستشرقين لا عن الاستشـــراق

بقلم أ/محمـد صاحـــــبي

1-المستشرقون و الفكر "التنويري" ؟

عـــلى الـــرغم مـــن الكتابات الكثيرة التي ظهرت في موضوع الإستشراق والمسائل المرتبطة به, فإن قدرا كبيرا من مادته و منهجه، لم يمس مباشرة في تحليلات الكـــتاب العـــرب. و أخـــص بالذكر في هذا المقام، انتقال فكر التنوير ومنجزات عصـــر الأنوار المنهجية،الـــفكرية و الفلسفية إلى اهتمام المثقفين العرب الأوائل مع بداية القرن العشرين؛ سواء مع كتابات المستشرقين حول الثقافة العربية الإسلامية، أو دروســـهم التي كانت تعطى فيما كان يعرف بمصر، على سبيل المثال، بالجامعة المسائية بجامعة الملك فؤاد الأول، (جامعة القاهرة حاليـــا)، و التي اتسمـــت في أغلبـــها، في تلك المناقشـــات و المجادلات وبعض الكتابات، بطابع خاص، لم يكـــن معروفا في السابق عند المثقفين العرب، حيث رسم حدودا بين ما هو قدسي وما هو إبداعي؛ و بين ما هو قديم و ما هو حديث... و لم تكن مصر و جامعتها الفتية آنذاك المزار الوحيد لهؤلاء المستشرقين أو "المنهجيين" الأوروبيين القادمين من باريس و برلين بل شهدت معاهد العلم و الثقافة بدمشق و بيروت و أماكن أخرى عديـــدة زيارات و دروس استشراقية أيضا؛ التقى بل تصادم خلالها عالمان : أحدهما تقليدي و الآخر حداثي. الأول منبهر بما حققه الثاني من إنجازات علمية و تقنية وفكرية، و أما الثاني فينظر إلى الأول على أنه حقل صالح للتجربة و الاستكشاف.

لقـــد عبر كثير من الباحثين و الدارسين العرب و غير العرب عن هذه النظرة المتـــبادلة بـــين الطرفي و أطلقوا عليها مفاهيم و مصطلحات من بينها "الاستعلاء" الغربي و "التقليد الأعمى" العربي و ألفاظ و عبارات أخرى رقيقة مثل "الاستشراق" و "الاســـتغراب"... و أخـــذت هـــذه الاصطلاحات في الانتشار و الذيوع حتى أصـــبحت تشـــير إلى حالة ثقافية و حضارية تحكم العلاقة بين مجتمعين مختلفين من حيـــث الرؤيا و من حيث البـــنى الفكريـــة و النفسيـــة والاجتماعية، وهو الأمر الـــذي شـــجع الطـــرفين المتناقضـــين في استكشاف بعضهما البعض. غير أن هذا الاستكشاف تم ولا يزال ضمن أهداف متباينة أيضا.

الواقع أن هذا الاستكشاف و هذه القراءة لم تكن وليدة بداية القرن العشرين بقـــدر ما كانت وليدة القرن الماضي، بل هناك من المؤشرات التي تؤكد تواجد هذه الظاهـــرة قبل ذلك بكثير، لكنها أضحت بارزة الملامح في عصر "محمـــد عـــلي" بمصـــر على وجه الخصوص. و يتبين ذلك جليا فيما كتبه "رفاعه رافع الطهطاوي" (1801-1873) في مؤلفـــه الشهير "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" حيث يمثل نمـــوذج المـــثقف العـــربي الذي عاش على وقع ما كان يعج به فضاء مدينة باريس وقاهرة "محمد علي" معا...

و لعـــل نصوص طه حسين و محمد مندور و غيرهما، سواء تلك التي كتبت عـــلى شكل آراء أو انطباعات في صفحات الجرائد و المجلات، أو تلك التي اتخذت شـــكل دراسات منهجية، خير مثال على ميلاد عصر جديد في الثقافة العربية ساهم المستشرقون من أمثال كارلو نلينو في تعميده.

لننظر إلى نص طه حسين الذي يقول فيه:

"كانـــت دروس الأدب التي كنت أسمعها في الجامعة حين يقبل المساء تدفعني إلى حياة الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات في روما و باريس و غيرهما من المدن الجامعية الأوروبية الكبرى، فكنت أعيش مع الماضي البعيد وجه النهار، و أعيش مع الحاضـــر الأوروبي الحديـــث آخر النهار، و تشغلني خطوب الحياة المصرية الراكدة الممضة بين ذينك الوقتين، و كان الرفاق يجدون من هده الحياة مثل ما كنت أجد، و يسعدون حين يعودون إلى الماضي، و يسعدون حين يدفعون إلى الحياة الغربية التي كانوا يتطلعون إليها"[1].

إن هـــذا النص (و نصوص أخرى) يحيلنا إلى فضائين متمايزين، شبه متناقضين سواء مـــن حيث العبق أو من حيث المطارحات، لكن , كان لهما الدور الحاسم في إعادة تأسيس منظور المثقفين العرب خلال تلك الفترة الزمنية. هذا المنظور الذي لا يزال لحـــد الآن، و رغـــم مـــرور عشرات السنين، يدفع إلى الخوض في مسائل الثقافة والإبداع دفعا.

و لعـــل ما يميز هدين الفضائين، هو تجاور مدينتين مختلفتين، من حيث البناء والفضـــاء – مدينة بغـــداد أو القاهرة –في زمن كاد أن ينقطع و بين مدينة باريس الحديـــثة، "العقلانـــية"، الـــتي أبهرت مثقفا من القرن التاسع عشر هو رفاعة رافع الطهطاوي، الذي ألف كتابا من أجل دلك هو تخليص الإبريز.

الواقع أن العقلانية التي تحدث عنها جيل الرواد من هدا القرن ما كان لها أن تصـــطبغ بلون خاص، لولا تلك الدروس المسائية، التي كان المستشرقون إحـــدى صـــــورها الكبرى ... فمن خلالهم، دخل ديكارت، و بيكون، والمنهج العقلاني بصفة عامة إلى قلوب وأذهان مستمعي الدروس المسائية بجامعة فؤاد الأول.

ومـــن خلالها أيضا بدأ يرتسم أمام أعين الحاضرين في مدرجات هذه الجامعة ،أن العقلانـــية الـــتي تتميز بها الثقافة الأوروبية ، وعصر الأنوار خلال القرن الثامن عشـــر، هي الخيط الرفيع التي لابد للمثقف العربي الإمساك به إن أراد الخروج إلى رحـــاب الفكر الحر، والمنهج العلمي "المبني على الشك و الريبة فيما خلفه علماؤنا وأدباؤنـــا الأوائل" وما إلى ذلك من أمور كانت بالنسبة لطه حسين و رفاقه بمثابة الفتح المبين... والأمر الذي لاشك فيه، أن محاولة المستشرقين توريد الفكر العقلاني نحـــو الشرق والثقافة العربية ، من خلال الطروحات "المنهجية" ،المبنية على الشك الديكـــارتي، هـــي في حقيقة الأمر، محاولة إعطاء الأنموذج الذي يمكن أن يتخذ من أجـــل مســـايرة أوروبـــا، في ثورتها على القديم، وما إلى ذلك من قضايا تدور في فلكها..

إنـــه لا يخفى على أحد الآن، أن " ديكارت" الذي هو جزء مهم من عصر الأنـــوار، وزمـــلاؤه من أمثال فرنسيس بيكون (القرن17) ،هم الحد الفاصل بين حقبتين متمايزتين بل و متناقضتين في الثقافة الأوروبية ذاتها...

فمـــن خلالهم, تم التفريق بين حقبة دوغماتية، قائمة على استلهام منجزات القدمـــاء والـــدوران في فلكها، بالاعتماد على "أريسطو". وحقبة أخرى، تجريبية-عقلانـــية، تضـــع المســـلمات أمام طاولة النقاش، مهما كانت دينة، أو دنيوية... فالعقل،والعقلانية بصفة عامة، قائمة على الانطلاق من فكرة أن العلم لم ينجز بعد، وأن الشـــك هـــو السلاح الوحيد للوصول إلى الحقيقة... فإذن، نحن أمام، تجربة أوروبـــية ذاتـــية ،اســـتمرت قرونا من الزمن، بدأت مع عصر النهضة "بفلورنسيا الإيطالـــية" مـــرورا بغاليليو غليلي[2] في القرن السادس عشر، والتي أثمرت في نهاية

المطـــاف، -ضمن ثمارها -كتابين يلخصان التجربة الأوروبية "المنهجية و العلمية"، هما "خطاب في المنهج " لديكارت وأصل الأنواع الحية لداروين...

هذه التجربة، التي أراد لها : كارلو نللينو و زملاؤه، أن تكون ضمن برنامجهم التدريســـي في بدايـــة القرن بالقاهرة. والتي تمثل ،بالنسبة لأوروبا، القطيعة المعرفية والإبســـتيمولوجية مع كل ما هو قديم.. بل انه ,من الوجهة هذه، يجب النظر إلى القديم من الحاضر ومنجزاته الفكرية والمنهجية.

لقد وعي طه حسين الدرس جيدا ، وتكونت لديه فكرة واضحة عن ذلك، وأين يريد نللينو وزملائه من أمثال كازانوف وغولدتسيهر أن يذهبوا بتلامذتهم... وأدرك أكثر ، أن المستشرقين، والاستشراق عموما ، هو نتاج هذا الفكر الأوروبي " العقلاني" الذي يمكن توظيف منهجيته لسبر أغوار الثقافة والتراث العربيين ، على الرغم من معرفته المسبقة أن منهج الشك، الذي يسير وفقه، كان من خصوصيات الاستشراق الفرنسي و قد ينتهي إلى "ما تأباه القومية، وتنفر منه الأهواء السياسية، وتكرهه العاطفة الدينية."

ولا يتـــبين هـــذا الإدراك ، عـــند طه حسين فحسب، بل عند معظم الذين عاصـــروا تلك " المحاضرات المسائية" لكنها عند طه حسين، تبدو أكثر إقناعا وأقل تسترا، في كتابيه "في الشعر الجاهلي" و" مستقبل الثقافة في مصر" اللذين كانا فاتحة لقرن جديد، بل ولعهد جديد، في الدراسة الأكاديمية والعلمية بوجه عام..[3].

ولعـــل الحصـــان الـــذي امتطاه طه حسين من أجل ذلك، كان " المنهج الديكـــارتي" الذي يقول عنه:" أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي اســـتحدثه ديكـــارت للبحث عن حقائق الأشياء في العصر الحديث، والناس جميعا

يعـــلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خال الذهن مما قيل فيه خلوا تاما ..[4]

من هنا، يبدو لنا واضحا، أن هناك تداخلا عجيبا بين الفكر التنويري و فكر المستشـــرقين، أو عـــلى الأقل، في جانب مهم منه، هذا الجانب الذي بشر به جيل الرواد من هذا القرن. ووضع له الأسس والمنطلقات المنهجية بل وذهب إلى أبعد من ذلـــك، حيـــنما أشـــرك المستشرقين في وضع البرامج والمقررات الدراسية...(وهو موضـــوع قـــائم بذاته يحتاج إلى وقفة مطولة، لإظهار الجوانب الخفية فيه وعلاقته بالاستشراق عموما...)

2 - الاستشراق استراتيجيته وحدوده:

لا يمكـــن رســـم حدود الاستشراق، ومنظور المستشرقين الفكري والثقافي (والحضـــاري أيضـــا) لأن ذلك يتطلب معرفة واسعة ومتشعبة بذلك، واستحضارا دقيقا لتاريخيته واستراتيجياته ومنهجياته. وهذا الأمر في حد ذاته، يتطلب بحثا طويلا وعريضا، لكن، يكفي فقط، القول في هذا المقام، أن مرحلة الاستكشاف الجغرافي، الـــتي عرفـــتها أوروبا ابتداء من القرن الخامس عشر،(والاكتشافات الجغرافية، من أراضـــي جديدة،وبشرية: من أمم وشعوب)، أثمرت في نهاية المطاف، ومع اتساع مدارك أوروبا ذاتها، بعد ترجمة التراث اليوناني ومنجزات العرب العلمية والفكرية، اكتشـــافا بالغ الأهمية، تمثل في تعرف أوروبا المثقفة على حضارات وثقافات، تفوق كلما تصوره الأوروبي عن الثقافة والحضارة إلى ذلك اليوم.

ومن هذا الخضم الجديد، في هذه الحركية الجديدة أيضا، بدأت ميادين العلوم تتوســـع وتـــتفرع لتشـــمل تلـــك الثقافات واللغات، من خلال المتابعة والدرس والاكتشاف.

فظهـــرت علـــوم عديـــدة، في هذا الشأن، يمكن ذكر ما له علاقة بالعلوم الإنسانية فحسب، لإدراك حجم الانبهار الذي طبع هذه المرحلة من مراحل التطور الفكـــري الأوروبي، ومـــن هذه العلوم : الأنثربولوجيا، والاثنولوجيا، اللتين حاول الأوروبيون من خلالهما الخروج من الحيز الأوروبي الضيق ،للإنجاز في الحيز العالمي الشـــامل.. ويكفـــي في هـــذا الصـــدد، ذكر أسماء لامعة في هذا الميدان، التاريخي المقـــارن...،للتدلـــيل على ذلك، ومنهما : شلغل ، وشلاشير ، في اللسانيات على ســـبيل المـــثال لا الحصر..واللذين اتخذا من اللغة السنسكرتية (لغة الهند المقدسة)، وســـيلة لدراســـة اللغات الأوروبية وتطورها..وأسفرت جهودهما،معرفة علمية-لسانية،ساهمت في تطور الألسنية المعاصرة ..[5] ومن هذا المثال البسيط، يمكن القول بـــأن الاستشـــراق،من حيث المبدأ هو تمييز أنطولوجي، ابستمولوجي بين الشرق والغرب. وعلى أساسه حاول الدارسون العرب التقريب بين المسافة الفاصلة بينهما بامتطاء مصطلح" الأصالة والمعاصرة" حينا ومصطلح "الحداثة" حينا آخر..

وبســـبب هذا التمييز، تشكل لدى وعي المثقف العربي،والأوروبي أيضا، إحساس-حقـــيقة ، مفـــاده أن الشرق يتميز عن الغرب من حيث الجوهر، سواء تعلق الأمر بقضـــايا الإنســـان أو العـــالم (الموضوع) أو العلاقة بينهما.. ومن أجل استخراج عناصر هذا التمييز، أو الفصل بين العالمين، لا نرجع إلى مقولات المستشرقين (وهي كـــثيرة في هـــذا الصدد) بل إلى مفكرين وأدباء غرب حاولوا من خلال كتاباتهم (مثـــلهم في ذلـــك مثل بعض الأوروبيين من أمثال: شاتوبريان**Chateaubriand** الفرنســـي، و غوته الألماني **Goethe**) تحديد الاستشراق باعتباره العين الأوروبية في العلاقة بين الغرب من جهة والشرق من جهة أخرى. هذا الشرق الذي لا ينحصر في الـــثقافة العربية بجميع فروعها، قديمها وجديدها وإشكالياتها ،آمالها وآلامها، بل

يـــتعداه إلى مـــا هو أعمق وأشمل. فالغربي ينظر إلى هذا الشرق، باعتباره الفردوس المفقـــود حيـــنا، و الماضي البعيد لأوروبا الحديثة حينا آخر، أما الشرقي فينظر نحو الغرب، على أنه الفردوس الحاضر حينا،والمسيطر،المتعالي المتجبر حينا آخر.. فعوض أن يكون اللقاء بينهما، انسجاما وتكاملا كما دعا إلى ذلك بعض المثقفين العرب، (الحديـــثين و المعاصـــرين) ، جاء اللقاء تصادميا، تنافريا، بين شرق روحي وغرب مادي ، و بين شرق ذاتي سحري، وغرب موضوعي مادي.

فهـــذا رفاعة الطهطاوي ، يرسم ملامح العلاقة بين الشرق و الغرب ، بلون يتميز بالانبهار كما في قوله "اعلم أن البارزيين يختصون من بين كثير من النصارى بذكـــاء العقل و دقة الفهم، و غوص ذهنهم في العويصات ، وليسوا مثل النصارى القبطة في أنهم يميلون بالطبيعة إلى الجهل و الغفلة ، و ليسوا أسراء التقليد أبدا ... " ثم يذهـــب إلى تصوير الشوارع النظيفة و الأبنية الفخمة و السير المنظم في الشوارع والأزقة و ما إلى ذلك من أمور خطفت لبه وعقله ، ...[6].

أمـــا أدونـــيس، و إن كان لا يخرج بأحكام عامة، من خلال معادلة الشرق والغـــرب، كمـــا عمـــد إلى ذلـــك الطهطاوي خلال القرن التاسع عشر ، إلا أنه ولظـــروف تاريخـــية و معرفية ، خاصة – ينظر إلى الغرب على أنه الابن العاق ، المتمرد الذي لا يستحق شفقة أو رحمة .

" لـــيس في الغرب شيء لم يأخذه عن الشرق ، الدين ، الفلسفة ، الشعر ... الفن بعامة (...) فخصوصية الغرب هي التقنية لا الإبداع لذلك يمكن القول إن الغرب حضـــاريا هـــو ابن الشرق ، لكنه " تقنيا "، لقيط ، انحراف ، استغلال، هيمنة ، استعمار ، إنه في دلالة أخرى ، التمرد على الأب ، و هو الآن لم يعد يكتفي بمجرد الـــتمرد ، إنمـــا يـــريد قـــتل الأب ..."[7] وهكـــذا ، من النظرة السطحية عند

الطهطـــاوي، بحكـــم الاحتكاك الأول بالغرب ، بعد غيبوبة و قطيعة معرفية دامت قـــرونا ، إلى المثقف الذي يعي جيدا مفهوم الغرب؛ إلى مبدع ثالث هو ألفرد فرج الذي يتجه اتجاها آخر، هو بمثابة الوجه الآخر، للاستشراق ، فهما واستيعابا، حين يقـــول بمـــرارة، "إن العالم يتألف من مدينة أوروبية و ريف آسيوي – إفريقي – أمريكي لاتيني، فات زمان كانت فيه القيمة الوحيدة لهذا العالم الثالث هي أنه مخزن للمواد الخام و للفولكلور و للآثار ، إن مصر ليست هي الهرم القديم ، و لا إفريقيا هي مجرد الأقنعة المخيفة والإيقاعات الزنجية التي لا تنتمي للفن المعتمد عالميا إلا من خلال الأوركسترا الأوروبية[8]

إذن ، مـــا الـــذي يدفـــع شاعرا كأدونيس أو مسرحيا كألفريد فرج مثلا، المعروفين بأبحاثهما –و خاصة بمنهجية أدونيس المعتمدة جزئيا على جانب مهم من طروحات المستشرقين ، إلى القول بما قالا، لولا إحساسهما الدفين بأن المنظور الذي يحكـــم العلاقـــة بين الشرق و الغرب ، أو بين الثقافة العربية و المنهج الغربي، غير مؤســـس فعلـــيا عـــلى تلـــك المثل التي أفرزها أوربا عصر الأنوار، و التي حاول المستشرقون الأخذ بطرف منها، و جعله من مستلزمات البحث والتقصي عن فكر و ثقافـــة و حياة العرب و المسلمين ،و هو الأمر الذي اتخذ في النهاية شكل وصاية فكـــرية و علمـــية لا يزال المثقف العربي بل و الإنسان العربي عامة ، و لحد الآن ، يحس بها و يتلمسها في الخطاب الأوروبي المعاصر، الفكري منه و الإعلامي ..

لقـــد عـــبر إدوارد سعيد عن هذه الإشكالية – علاقة الاستشراق كمنظور فكـــري و سياســـي و مـــنهجي، بالشـــرق عموما ، و الثقافة العربية الإسلامية خصوصـــا،- بأنـــه (أي الاستشراق)، رغم تحقيقه لإنجازات كثيرة ، فإنه لم يكن

بمقدوره أبدا أن ينقح نفسه و يعيد النظر في طبيعته ، وذلك كله يجعل من كرومر، وبلفور ، من حيث هما مراقبان للشرق أو إداريان له ، أمرا حتميا ..[9].

3- الاستشراق مصدر من مصادر المعلومات عن الثقافة العربية الإسلامية :

لقـــد تناول العديد من الباحثين العرب مسألة الاستشراق في كتاباتهم، حللوا وناقشـــوا، ما للمستشرقين و ما عليهم، وتعددت الكتابات و الردود ، و الخطاب واحـــد ، و هـــو محاولـــة فهـــم " الظاهرة " الاستشراقية، و إنتاجها القائم على الأنتروبولوجيا الثقافية ، كاتجاه في الكتابة و منهج في الدراسة .

و مـــن أمثلة هذه الدراسات يمكن ذكر على سبيل المثال لا الحصر ، ما يلي ، لفهم درجة استعصاء الأمر على كتاب و مثقفي العربية .

-الاستشراق و المستشرقون ، ما لهم و ما عليهم ، لمصطفى السباعي .

- الاستشراق بين الموضوعية و الانفعالية – لقاسم السامرائي .

-مناهج المستشرقين ، من منشورات المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم .

و مـــا إلى ذلك من كتابات ، و دراسات ، كان آخرها و أهمها ، ما نشره إدوارد سعيد بالولايات المتحدة الأمريكية ، و الذي أثار كتابه "الاستشراق" ضجة هائلة ، في الجامعات الأمريكية والأوروبية و خارجها ، باعتباره هجوما عنيفا على الاستشـــراق ، و فهم الغرب العنصري.للشرق . و من الاعتراضات "الضيقة" التي أثـــيرت علـــيه ، أنه لا يذكر فلانا أو فلانا من المستشرقين الذين وقفوا من العرب موقفـــا أفضل ، أو المدرسة الفلانية و ما إلى ذلك ...[10] الواقع أن هذه الردود لم تكـــن صادرة عن مثقفين عرب متعاطفين مع الاستشراق ، (و إن حصل ذلك فيما بعـــد) بل صدرت من جامعيين و كتاب أمريكيين . استطاع الطرح الاستشراقي ،

ومـــنظوره ، و كذلك ثقافة الغرب ورؤاها ، أن تحجب حقائق عن الشرق و ثقافته و قضاياه، بل و تكرس الوصاية التي يتحدث عنها إدوارد سعيد.

لقد سبق أن تعرض المرحوم عمر فروخ ، لهجمة عنيفة ، من طرف الكتاب العـــرب أنفسهم حينما قام بنقده للاستشراق في كتبه و دراساته و ترجماته ، مثل "المستشـــرقون و طـــبقاتهم" الـــذي صـــدر بعد وفاته ، و هو الذي كان تلميذا للمستشرقين الألمان ، من أمثال يوليوس روسكا ، و شيدر و آخرين .. و اتهم بأنه كـــان سيئ الظن بالنسبة للمستشرقين مهاجما للاستشراق، حاملا عليه خالطا بينه وبين التبشير و الاستعمار ..[11]

لقـــد انطلـــق عمـــر فـــروخ ، مثله في ذلك مثل إدوارد سعيد ، في تصديه لدراســـات و أبحـــاث المستشرقين من تجربة واحتكاك كبيرين بالمستشرقين ، و من إدراك ثاقـــب ، لخطـــورة مـــنهج الاستشراق في خلطه بين ما هو علمي و ما هو سياســـي وبـــين ما هو ديني وفكري . غير أنه يستثني في ذلك بعض الذين أنصفوا العرب و المسلمين ، و كانوا استثناء في حركة الاستشراق ، و يذكر عددا منهم ، مـــن أمـــثال جورج سارتن صاحب كتاب "مقدمة في تاريخ العلم" وفيليب حتى وغيرهمـــا.. غـــير أنه و مع التأكيد على سلبية الاستشراق ، لا يرمي المنشفة ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، حينما يدعو كتاب العربية و الإسلام ، إلى الرد الحضاري على افتراءات المستشرقين ، بدل الشتم و القذف . لأنه مدرك لأهمية الاستشراق في حياتنا الثقافية و الفكرية و السياسية ، و أنه من المصادر الثقافية و العلمية عن تاريخ العـــرب و المسلمين.[12] ليس فقط للغرب وشعوبه، بل أيضا للعرب و مثقفيه ؛ إذ لايكـــاد يخلو بحث من البحوث العربية و الإسلامية ، من رأي أو إشارة تاريخية ، مصدرها كتاب أو مقالة مستشرق..

و إذا كـــان عمر فروخ ، قد أتهم بعضهم على غير محملة كما قال البعض، ونعتهم بالتحامل و التبعية، دون التعرف الجلي لخلفيات ذلك، الفكرية و المنهجية ، فـــإن ذلـــك لا ينطبق على إدوارد سعيد ، الذي فهم أن وقوف بعض المستشرقين موقـــف المســـيء إلى العرب و المسلمين ، لم يكن إلا انطلاقا من منهجهم العلمي والتاريخي ، الذي طبق بصرامة على النصوص المسيحية ذاتها. و الحل لهذا الإشكال في نظره هو تصحيح الأسس التي انطلق منها الاستشراق و المستشرقون في دراساتهم و مقارباتهم . و هنا يلتقي إدوارد سعيد مع ما طرحه (**louis Gardet**) عندما أقر بـــالهفوات و المؤاخـــذات التي وقع فيها الاستشراق ، فعمد إلى تصحيح المقولات والمفاهـــيم الـــتي ألصقت بتراث المسلمين الديني و الفكري و الاجتماعي في كتابه الموســـوم "رجـــالات لإسلام" "**les hommes de l'islam** " حيث يقول – على سبيل المثال – و هو يستعرض أهم المغالطات التي ارتكبها بعض المستشرقين – :

" و يمكـــن بالمناســـبة التذكير بتلك الأحكام غير المعقولة بل بتلك الافتراءات التي صدرت عن "أرنست رينان" حول الإسلام و رموزه و لكنها على الرغم من ذلك إلا أنهـــا ساهمت و لو بشكل جزئي في التعريف بالإسلام "حضارة" و وضعه ضمن خارطة الحضارات الإنسانية الكبرى "...[13]

و مـــن أجل البدء في عملية التصحيح ، يقترح "لويس غارديّ" الرجوع إلى مصـــدر الفهـــم الســـيئ الذي لا يمكن أن يكون إلا في تلك المرحلة التاريخية التي ساهمت بشكل معاكس في تكريس الصورة المشوهة عن كل ما هو غير أوروبي .. و الذي زادته العصور الحديثة بتعاليها و نظراتها الفوقية الشيء الكثير..[14]

و في ختام هذه المساهمة المتواضعة ، يجب القول بأن هناك من يجانب الحقيقة، ذلـــك الـــذي يتصور أن ما يكتبه المستشرقون، موجه نحو القارئ العربي بقصد أو

بغـــير قصـــد . بـــل إن الأصـــح القـــول ، إنه موجه بالدرجة الأولى إلى المثقف الغـــربي(الأوروبي و الأمريكي) .. بمعنى أنهم يقدمون صورا عن العرب و الإسلام، مهمـــا كانت درجة صحتهما أو خطئها ، تبعا لمنظورهم الخاص للعالم و للأشياء . وأن مـــا قام و يقوم به الكتاب و الدارسون العرب ، في محاولاتهم لفهم محيطهم الثقافي و الاجتماعي ، إنما ينطلق في منهجيته و إجراءاته من هذا الفهم السيئ الذي تحدث عنه "لويس غاردي"، و الذي كرسته بعض الأقلام ، في تحليلاتها بدعوى أنها تنطلق في تصوراتها من البعد الحداثي للأشياء... و هذا هو الخلط بعينيه ..

ومهما يكن من أمر ، فإن ما قدمه المستشرقون ، فرادى و جماعات ، و ليس الاستشـــراق في كلـــياته ، قد خدم الثقافة و المثقفين العرب ، و التراث الإسلامي بشـــكل عـــام .. و المقام هنا, لا يتسع لذكر ما للمستشرقين من فضل في ذلك .. وهـــو كثير .لكن يكفي الإشارة وحسب إلى ذلك الكم الهائل من المخطوطات التي حققـــت ونشـــرت مـــن طرف أقطاب الاستشراق الألماني والهولندي..و إن كان ذلـــك,لا يمـــثل إلا نســـبة يســـيرة مـــن العدد المهول من المخطوطات العربية و الإسلامية...

الهوامـــش

1-طه حسين ، نقد و إصلاح . ط2 . بيروت :دار العلم للملايين 1960 .ص.164 .

2 - غاليليو غاليلي هو أحد أقطاب الفيزياء و الفلك إبان عصر النهضة بإيطاليا حيث أحدثت آراءه و آراء زميله كوبرنيكس ثورة في الفكر الأوروبي .و كانت آراءهما من الدعائم الأساسية التي بني عليها علم أوروبا إبان عصر النوار خلال القرن الثامن عشر.

3 - أنظر في ذلك البحث الذي قدمه د. محسن جاسم الموسومي في كتابه "الاستشراق في الفكر العربي"طبع :الهيئة المصرية العامة للكتاب .1997 . ص.90-96 .

4 - طه حسين .في الأدب الجاهلي ،ط.9 . القاهرة : دار المعارف . 1968 . ص.64 .

5 - R.H.ROBINS; breve histoire de lq linguistique: De Platon a CHOMSKY . PARIS ED du seuil 1976 p141

6 - رفاعة رافع الطهطاوي ، تخليص الابريز في تلخيص باريز . القاهرة : مطبعة مصطفى الحلبي بمصر ، د.ت ص271

7 - أدونيس (علي أحمد سعيد) ، فاتحة لنهايات القرن ، بيروت : دار العودة 1980 . ص330.

8 – ألفريد فرج ، تأملات في الثقافة ، بغداد : وزارة الثقافة و الإعلام 1984 . ص55 .

9 – إدوارد سعيد ، الاستشراق : المعرفة السلطة الإنشاء . تر. : كمال أبو ديب . بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية. 1981 . ص121 .

10 – راجع في ذلك مقدمة كمال أبو ديب لكتاب الاستشراق لإدوارد سعيد .

11 – ميشال جحا ، "الاستشراق" . بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة . عدد 4 فبراير 1990 . ص81 .

12 – لقد قام المستشرقون بدور كان من المفروض أن يقوم على عاتق الكتاب العرب و المسلمين (تحقيق ،ترجمة ونشر للتراث العربي الإسلامي) و تقديمه إلى العالم في أحسن صورة ممكنة . و عوض أن نحاكم،حري بنا التفكير في استراتيجية أخرى منطلقة من القيام بدور حضاري يكشف عما هو مخزون من مخطوطات في متاحف العالم .

13- LOUIS GARDET / LES HOMMES DE L'ISLAM , PARIS HACHETTE ; 1984 . P 316 – 317 .

14- I B I D , P 324 .